تقديم

أحمدُ اللهَ على نِعْمَةِ الإرشادِ والتوفيق، وأسألهُ أعطرَ الصلواتِ وأجَلَّ التسليماتِ على النبيِّ المصطفَى الذي هدانا بهِ إلى أعظمِ طريق.

وبعدُ..

فهذهِ هي «نظراتُ» المنفلوطِي التي نَقَدَ بها المجتمع وعالجَ من خلالها عِلَلَهُ وأمراضَهُ بأسلوبهِ الأدَبيِّ المنمَّقِ الرصين.

نشرها في صورة مقالات في مجلةِ «المؤيد» تباعًا، ثم جعلها في كتاب مكوَّنٍ من «ثلاثة أجزاء» ليكون أشْهَرَ كتبه وأعظمَ أبحاثه، وكيفَ لا يكون كذلكَ وقد أثنى عليه الكبار في حياته وبعد مماته، ومازالَ الثناءُ ممتدًا إلى يوم الناس هذا. فماذَا عَسَاي أن أقول بعدَ أن قالَ عميد الأدب العربي د/ طه حسين في الطبعة الثانية من «النظرات» عام ١٩١١م:

«لقد كنت أمقت المؤيد كل المقت إلا يوم تنشر في نظرة أو أسبوعية فقد علم الله أني كنت أشغف به كل الشغف وأقبل عليه كل الإقبال، فإن الذي يكلفني عرف القربة إلى مغني البوسفور والبيلفدير ومهرجان النيل هو بعينه الذي يكلفني قراءة المؤيد يوم تنشر فيه مقالات هذا الكاتب الكبير» يقصد المنفلوطي.

وهل يحقُّ لي أن أتكلم بعد أن نطق الكاتب الكبير/ عباس محمود العقاد قائلًا:

«لقد كان المنفلوطي أحد أولئك الأدباء القلائل الذين أدخلوا المعنى والقصد في الإنشاء العربي بعد أن ذهب منه كل معنى وضل به الكاتبون عن كل قصد.

وليس يُظهر فضل هذه الخطوة المباركة إلا الذين وقفوا على بقية أساليب الإنشاء

في الجيل الذي غبر قبل نبوغ المنفلوطي وإخوانه، فقد كانت الكتابة في ذلك الجيل قوالب محفوظة تُنقل في كل رسالة، ويزج بها في كل مقام وكانت أغراض الكتابة كخطب المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجة إلقائها ووحدة موضوعها..

* وفي مقال طويل يتحدث الأديبُ الكبير/ محمد إمام العبد أحد أدباء مصرَ في هذا العصرِ موضحًا فضل «المنفلوطي» وتأثيره في الارتقاء بالبيان العربي وبعلم الإنشاء بعد ضعفٍ طال أمده فيقول بكل صراحةٍ وجلاء:

«... حتى تنكَّر الزمنُ لأمر في نفسه فبان القلم أضعف ما يكون ضعيفًا في يد أقوام قيدوه طليقًا وأذلوه عزيزًا، وباتت الألفاظ تَتَملْمَل على الطروس [1] تَملْمُل السقيم وقد أخذه الداء، واصطلحت عليه مختلفات الأمراض حتى كدنا نصلي على أم اللغات صلاة الجنازة!

فرأى أستاذنا العالم بأسرارها الواقف على دقائقها السيد مصطفى لطفي المنفلوطي أن يعيد إليها جدتها بذلك القلم الناطق الذي نبت في رياض الجنة فما هي حتى بصرنا بنور يتلألأ على صفحات المؤيد بعثه المنفلوطي على الكون من سماء أدبه تحت جمال النظرات التي جعل لها الأدب في كل أسبوع عيدًا تلبس فيه اللغة أحسن حلة.

ضرب السيد الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي بنظراته في ذلك المجتمع الإنساني فصوره للناظرين بتلك الريشة التي لو اهتدى إليها روفائيل لوصلت إليه الدنيا في فجر سعيد، وما زال ينتقل فيه بدافع النفس الطاهرة حتى هدى نفوسًا أخذها السأم واستولى عليها اليأس وغم عليها الأمر فكادت تذهب بدافع اليأس إلى حيث لايتسرب إليها الإرشاد ولا يصل إليها بصيص من نور الهداية، وهناك الشقاء الدائم والعذاب المقيم.

في تلك النظرات كاتِبٌ وضع الوجود في كفه ونظر نظرة الحكيم فمرت كل المرئيات أمام فكره فأتى على كل ما يضمه المجتمع الإنساني وعرضه علينا صورة صورة في ألفاظ كأنه أصابها من بحر عمان ومعان عصر نفسه عليها بديع الزمان.

(١) طِرس: الصحيفة، جمعها طروس.

جال المنفلوطي جولة في كل شيء فتراه إذا كتب في الشقاء صغرت الدنيا عن التصغير، وإذا كتب في معنى الإنسان عرف القلم مقر الضمير، فهو يبكي إذا شاء ويضحك إذا شاء، ويصل بعقل القارئ في لمحة إلى مدى لا يصل إليه الإنسان ولو بات الدهر طوع عمره».

أما الكبار الذين أهدى إليهم «المنفلوطي» نظراته، فقد ردوا على هديته بكلماتٍ رنَّانَة وأسلوب ناصع البيان، وسوف أثبتُ لك كلمات ثلاثة من عظماء الأدب وأربابِ البيان لتعذرني في عدم نطقي أمام بيانهم ببنت شفة، وهؤلاء الأعلام هم شاعر النيل «حافظ إبراهيم»، والأديب الألمعي «محمد المويلحي» والأديب «جورجي زيدان».

* أما حافظ فقد كتب إلى المنفلوطي يقول:

"حضرة الصديق الكريم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي

قدم أحد أقيال[1] اليمن إلى دار النَّدوة للمنافرة[2] فبصُر فيها بصاحب الشريعة الإسلامية وهو إذ ذاك غلام مراهق فقال لمن حضر من القوم إن هذا الغلام ينظر إليكم بعيني لَبُؤَة[3] وتارة بعيني عذراءَ خفرة[4] فلو أن نظرتَه الأولى كانت سهمًا لانتظمت أفئدتكم فؤادًا فؤادًا، ولو أن الثانية كانت نسيمًا لأنشرتْ[5] أمواتكم، وكذلك أراك في نظراتك إلى قومك أيها الكاتب الكبير، فلولا أنك غير معصوم وأن الله قد أجلّ مقامَ النبوّة عن الأشباه والنظائر لقلتُ ما أشبهه هذه بتلك والسلام".

محمد حافظ إبراهيم

مصر ٣ أبريل سنة ١٩٠٩

وأما رسالة «المويلحي» فكانت كما يلي:

"حضرة الأخ الكريم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي

ما الكتابة بلا روح إلا كالخط بلا وضوح، وإني لأسير مع نظراتك خطوة خطوة فأراها من جنس ما يصدر من النفس إلى النفس، ويؤثّر

(١) القيل: الملك من ملوك حمير.
(٢) المنافرة: المفاخرة.
(٣) اللبؤة: الأسدة.
(٤) الخفرة: المستحيية.
(٥) أنشر الميت: أحياه.

من الحس إلى الحس، ويزيد فيها الإحسانُ والإبداع، كلما زاد الاختبار واتسع الاطلاع، فسلام عليك من معجَب بأدبك مثنٍ على فضلك ورحمة الله".

محمد المويلحي

مصر في ١٧ مارس ١٩٠٩

* أمَّا خطاب «جورجي زيدان» فكان نصه هكذا:

"حضرة الصديق الفاضل السيد مصطفى لطفي المنفلوطي

إن ظهور كاتب بليغ مثلك ينشر آراءَه الحرة الناضجة في جريدة كبيرة مثل «جريدة المؤيد» يبعث على الأمل بدخول هذا القطر في طور جديد، فاقبل أيها الصديق شكري لك بالنيابة عن قراء العربية جميعًا لأنك نَشَّطَت حرية القول، وطرقت باب الانتقاد الصحيح، وأحييت آداب هذا اللسان بما أدخلته في الإنشاء العربي من الأسلوب العصري الجميل، فأجدتَ وأبدعتَ إلى الغاية التي لا غاية وراءهـا، وإني أترجم لك في قولي هذا عن شعور جميع الذين يقرءون رسائلَك بلذة وإعجاب، وأعترف بأنها الرسائل الفريدة التي جمعت بين بلاغة صدر الإسلام، وأدب هذه الأيام، والسلام".

جرجي زيدان

مصر ١٣ أكتوبر سنة ١٩٠٨

هكذا نطق بعض أرباب النثر من كبار الكتَّاب بالثناء على «المنفلوطي» ونظراته، وإذا أردتَ الزيادة فارجع إلى البحوث القديمة التي كُتِبَت في مجلة «المقتطف» و«الرسالة» وغيرهما بأقلام الكبار كعبد الرحمن شكري، وأحمد حسن الزيات، ويعقوب صروف، وعبد الرحمن أفندي زغلول، وغيرهم.

فإذا انتقلنا إلى الشعراء فسنكتفي بأميرهم أحمد شوقي الذي رثى «المنفلوطي» بقصيدة عصماء بدأها بقوله:

اخـتـرتَ يـومَ الـهـوْلِ يـومَ وَدَاعِ ونعاكَ في عَصْفِ الرياحِ النَّاعي

هتفَ النعاةُ ضُحًى فأوصدَ دُونَهم ... جُرْحُ الرئيسِ مَنَافِذَ الأسْمَاعِ
مَنْ مَاتَ في فَزَعِ القِيَامَةِ لَمْ يَجِدْ ... قَدَمًا تُشَيِّعُ أوْ حَفَاوةَ سَاعِ
مَاضَرَّ لوْ صَبَرتْ رِكَابُكَ ... سَاعَةً كَيْفَ الوقُوفُ إِذَا أهَابَ الدَّاهِي
خَلِّ الجَنَائزْ عَنْكَ لَا تَحْفَلْ بِهَا ... لَيسَ الغرورُ لميِّتٍ بمتَاعِ

ثم تطرق إلى أدبه وكتبه فقال مخاطبًا:

يا مُرْسِلَ «النظراتِ» في الدنيا وَمَا ... فِيهَا علَى ضَجَرٍ وضِيقِ ذِرَاعِ
وَمُرَقْرِقَ «العبَرات» تَجْرِي رقَّةً ... للعَالِمَ الباكِي مِنَ الأوْجَاعِ

وبَعْدَها بأبياتٍ يقول شوقي:

يَا مُصْطَفَى البُلَغَاءِ أيَّ براعَةٍ ... فَقَدُوا وأيَّ مُعَلِّمٍ بيَراعِ
اليومَ أبصرتَ الحياةَ فَقُلْ لنا: ... مَاذَا وراءَ سَرَابِهَا اللمَّاعِ

إنَّ صَاحِبَ «النظرات» يرشدهُ خيالٌ قوي، وتمدهُ لغةٌ انقادت إليه مفرداتها وتراكيبُها، حتى كان قلمه السيَّال يهديه إلى منهج السداد، هداية القائد الباسل المجرِّب إلى الفوز والانتصار.

إن كتاب «النظرات» في أجزائه الثلاثة يتناول الحياة في شتى شئونها، فهو في الأساس يهدف إلى:

١- إرساء قواعد الفضيلة والخلق القويم، والاستمساك بآداب الدين، والسير على نهجه وسلوكه.

٢- محاربة الظلم والظالمين، والجشع والجشعين، وكراهية التعصب ومحاربة الكذب.

٣- بث الأمل في نفوس المحزونين، واستدرار الرحمة على الإنسان والحيوان.

٤- التدبر والتفكر في بديع صنع الله والتمتع بنعمه التي أنعم بها على عباده.

٥- الاستفادة من محاسن المدنية الغربية وعبقرية رجالها، والتحذير من مساوئها.

٦- محاربة أدواء المجتمعات المتخلفة والجاهلة.

٧- قراءة الأحداث والتاريخ والأعلام والاستفادة من دراستها.

تلك هي أبرز الموضوعات التي كتبها «المنفلوطي» في نظراته.

عملي في الكتاب

لقد كان عملي منصبًا على توضيح بعض المعاني والألفاظ، والإفادة من الطبعات القديمة المتعددة للنظرات، وإضافةِ ما هو غير موجود في الطبعات المبتورة أو الناقصة، لاسيما المقدمة التي كتبها الأديب أحمد أفندي حافظ عوض، والتي عرَّف فيها بالمنفلوطي، حياته، وأدبه، ونثره، وشعره.

سائلًا الله التوفيق والرشاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

عادل عبد المنعم أبو العباس

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م